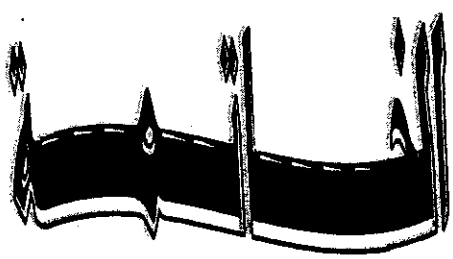

كانت أرمينية تعد بمثابة الدرع الواقى لظهر الإمبراطورية البيزنطية ، يعطيها عمقا إقليميا ويدفع عنها الأخطار . وكان الاستيلاء على ذلك الدرع يسهل على أعداء الدولة قطع أوصال الإمبراطورية البيزنطية وتهديد عاصمتها القسطنطينية ذاتها . ولذا كانت تنظيمات جستنيان الحربية والإدارية والمدنية فى أرمينية تكمن خلفها أسباب سياسية ، بالإضافة إلى الأسباب الظاهرية . فيرى الباحث أن تنظيمات جستنيان الحربية فى أرمينية كان دافعها الأصلى هو عزم جستنيان على أن يخوض عدداً من الحروب الإستردادية فى كل أنحاء الإمبراطورية [١] .

ولكى يحقق ذلك كان لزاما عليه تأمين الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية . فأمر جستنيان بتشييد عدد من الحصون الضخمة والمنيعة على الحدود الأرمينية . مما كان لها أكبر الأثر فى تأمين أرمينية من هجمات الفرس .بالإضافة إلى أنها وفرت أعداداً كبيرة من الجنود الذين كانوا يرابطون على الحدود الشرقية للإمبراطورية . وذلك لاتخاذها كقواعد للإنطلاق والهجوم على الفرس [٢] .

ولايخفى على الباحث أن الصراع التقليدى بين الفرس والرومان فى أرمينية كلف جستنيان الكثير من الأموال . وإن كان جستنيان لم يدخروسعا فى التصدى لهم فى مناطق النفوذ فى أرمينية . والدخول فى معارك دفاعية فرضها عليه الفرس نتيجة لتعارض المصالح بين القوتين العظميين . وبرغم المعارك الحربية التى دارات بينهما فى أرمينية فإن جستنيان تمكن من المحافظة على أراضى أرمينية الغربية دون أن يفقد شبرا واحداً من أراضيها .

---

(١) Procopius, Wars, I, pp.141-145.; Zachariah, op.Cit., pp.224-225.

(٢) Procopius, Buildings, pp.191-201.

انظر أيضا : نينا فكتور فنيا . المرجع السابق ، ص٢٦٣-٢٧٠ . ؛ راجع أيضا الفصل الثالث من البحث .

أما بالنسبة للتنظيمات المدنية والإدارية التى أدخلها جستنيان فى أرمينية ، فكان السبب الحقيقى من ورائها هو تقسيم أرمينية إلى أربعة أقاليم إدارية لتنظيم العوائد المالية وضمان وصولها من أرمينية للخزانة الإمبراطورية ، لمواجهة النفقات الباهظة التى تتكبدها الإمبراطورية فى حروبها الإستراداية [١] . أما فيما يتعلق بالمرسوم الخاص بتنظيم الإرث بين الأرمن [٢] ، فإن تفسيره يكمن فى رغبة الإمبراطور جستنيان فى إضعاف نظام الإقطاع الذى كان يقف فى طريق الأهداف المركزية للإمبراطورية . وكذلك الحد من سلطة أمراء الإقطاع والتى كانت تعتمد على أراضيهم ، وذلك بتفتيتها بين جميع أفراد الأسرة الواحدة .

وكانت سياسة جستنيان فى أرمينية قائمة على إبعاد أشراف الأرمن عن بلادهم الأم ، وإعادة توطينهم فى تراقيا وأسيا الصغرى والبلقان ووزع عليهم الألقاب والرتب والأراضى الشاسعة فى جوف الإمبراطورية البيزنطية . ويعيد مكانهم طبقة الكولون Colons الأتين من ميس Mesie والأسرى الألتاكيين Altaiques أو السلاف Slaves خاصة فى صوفين وملطية . وكان الهدف من ذلك إبعاد قادة الأرمن عن مركز ثقلهم وشعوبهم ، وكذلك تشتيت الجنس الأرمنى وإغراقه بفعل سياسة التهجير (٣) ، حتى يصبحوا أداة سهلة وطيعة لتنفيذ سياسته القائمة على صبغهم بالصبغة الهيلينية . وذلك حتى يتجنب إقامة مراكز قوى تهدد كيان الإمبراطورية .

وزاد الطين بلة أن عانى الأرمن من وطأة الضرائب التى أثقلت عاتقهم . وتحمل التجار والصناع العبء الأكبر والرئيسى من هذه الضرائب [٤] .

---

(١) راجع الفصل الثالث من البحث ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ ؛ الفصل الرابع ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢) راجع الفصل الثالث من البحث ، ص ١١٤ ؛ كذلك أنظر الملاحق ، الملحق رقم : ٣ ، ص ١٧٠ .

(٣) أنظر الفصل الرابع من البحث ، ص ١٣٨ ـ ١٤٢ .

(٤) راجع ملاحق البحث ، Novella, 31 ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

ووصل الأمر إلى أقصاه حين أراد البيزنطيون فى وقت متأخر فرض ضريبة على الكنيسة الأرمينية . بل وصل بهم الأمر إلى محاولة فرض ضريبة على البطريرك الأرمنى نفسه على حد قول المؤرخ الأرمنى أريستاكيس الليستيفرتى [1] .

وكان من المنطقى أن يحدث رد فعل قوى لسياسة بيزنطة فى أرمينية وتجنى العواقب الوخيمة لسياستها الخاطئة فى أرمينية . فكسبت حقد الشعب الأرمنى ، لما عاناه من اضطهاد وثقل وطأة الضرائب التى أثقلت كاهله . وتعسف جباة الضرائب فى تحصيلها وفق أهوائهم الشخصية . كل هذا كان كفيلا بإثارة انتفاضة الأرمن ضد السيادة البيزنطية .

ولم تكف الإمبراطورية البيزنطية عن إثارة مشاعر الأرمن الدينية ، وبالتالى استمرت فى جنى حقد الشعب الأرمنى . فكثيرا ما كانت الإمبراطورية البيزنطية تتدخل فى الشئون الكنسية والمذهبية للأرمن . بل وكانت تضطهدهم وتجبرهم على اعتناق المذهب الخلقدونى . ورغم ذلك فإن الباحث يرى أن السياسة الدينية للإمبراطورية البيزنطية فى أرمينية كانت متغيرة إلى حد ما ، حسب الزمان والأحوال . فإذا كانت الإمبراطورية تعد لهجوم على بلاد فارس ، كانت تتوقف عن الاضطهادات الدينية ضد الأرمن حتى تضمن ولائهم . ثم تعود من جديد إلى اضطهادهم إذا ما كانت فى حاجة إلى عون البابا فى روما [2] . وهذا ما أزكى نار الحقد والكراهية فى صدور الأرمن تجاه البيزنطيين .

---

(١) راجع الفصل الرابع من البحث ، ص ١٢٥ ـ ١٣٦ .

(٢) عن الإضطهادات الدينية للأرمن : أنظر : الفصل الرابع من البحث ، ص ١٣٦ ـ ١٤٠ .

ويتجلى ذلك الأمر بوضوح بالغ فى مصنفات مؤرخى الأرمن والسريان فنجد المؤرخ لازار الفارابى يذكر " إن البيزنطيين يتميزون بالضعف والخداع " [١] . أما المؤرخ الأرمنى أسوليك الطارونى فقد إتهمهم بالبخل الشديد حيث ذكر فى مصنفه التاريخ العالمى " انه من غير المعتاد ، عند البيزنطيين أن يتسم الإنسان بالكرم ، بل إن كلمة الكرم لم ترد فى قواميس لغتهم " [٢] أما المؤرخ متى الرهاوى فقد عقب على ضم بيزنطة لأرمينية بقوله " فقدت مملكتنا أصحابها الشرعيين نتيجة هذا الضم إلى الإمبراطورية البيزنطية ، تلك الأمة المخنثة الخسيسة الدنيئة [٣] " أما ميخائيل السريانى فقد ذكر فى حوليته أن الأرمن قالوا عن الروم " إنهم أسوأ الأسياد ، حيث يتسمون بسوء النية ، ويسيطر على عقولهم الجنون بسبب حقدهم على من يعتنق الأرثوذكسية [٤] " .

ولم يختلف شعور الرومان تجاه الأرمن ، بل كانوا أكثر حقداً وكرها عليهم . فمن الأقوال البيزنطية المأثورة حول هذا " إن الصديق الأرمنى هو أسوأ الأعداء . فالأرمنى كاذب وخائن ومحتال " [٥] . والجدير بالذكر أن هذا الكره وذلك الحقد المتبادل بين الأرمن والبيزنطيين ، من الأسباب الرئيسية لقبول الأرمن لمعاهدة السلام الإسلامية سنة ٣٣ هـ / ٦٥٣ م . والتى تعنى قبول السيادة الإسلامية ونبذ السيادة البيزنطية [٦] .

---

(١) Lazar de Parbi, op.Cit., t., II, ch. 64, p.344, ch.66, p.362.

(٢) Asolik, op.Cit., III, ch.3, p.116.

(٣) Matthieu d'Edesse, op.Cit., ch. L xxxiv, p.113.

(٤) Michel Le syrien, op.Cit., t.11, p.482.

(٥) Vita Euthymii, ed. de Boor, Berlin, 1888, p.2.

(٦) فايز نجيب إسكندر . الفتوحات الإسلامية لأرمينية ، (١١-٤٠ هـ / ٦٣٢- ٦٦١م) الإسكندرية ١٩٨٣ . ص٥١-٦٤ .

وهكذا كانت سياسة الإمبراطورية البيزنطية تجاه أرمينية تتسم بقصر النظر والفشل الزريع . فقد حطمت بيزنطية بيدها ذلك الحائط الضخم الذى شيدته خلال عدة قرون . فالأرمن من وجهة نظر بيزنطة ليسوا الإهراطقة لرفضهم مقررات مجمع خلقدونية وتمسكهم بكنيستهم .

وبتحطيم بيزنطة هذا الجدار الواقى ، حطمت القوى الرئيسية التى كانت بإمكانها مجابهة هجمات الفرس ، والقوة الإسلامية الفتية فيما بعد . وبسقوط أرمينية فى أيدى المسلمين أصبحت المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين وجها لوجه ، لاعائق بينهما . وكان هذا التحطيم باهظ الثمن ، إذ تمكن الأتراك السلاجقة بعد مضى ما يقرب من نصف قرن من تقويض بنيان الإمبراطورية البيزنطية . وكل هذا كان بمثابة الضريبة الغالية التى دفعتها بيزنطة نتيجة استراتيجيتها الخاطئة فى أرمينية .

واللافت للنظر أن هؤلاء الأرمن رغم كل الويلات وتلك التقسيمات المتتالية التى أصابت بلادهم ، فإن شيئا من هذا كله لم يؤد بشكل أو بآخر إلى ضياعهم كأمة متماسكة . أو زوالهم من خارطة شعوب الأرض .